المبحث الثاني

أثر الوقف في تحقيق التنمية الاجتماعية

إن التنمية في المفهوم الإسلامي تعتمد بالدرجة الأولى على العنصر البشري، مرتكزاً، ووسيلة، وهدفاً. وتحقيق التنمية البشرية يكون بتحقيق مقاصد الشريعة الخمس عند حد مستوى الكفاية، الذي هو المستوى اللائق بالمسلم، نائب ربه في مجتمع الاستخلاف. إن كفاية المسلم، دينه ونفسه وعقله ونسله وماله، يتم من خلال ما نطلق عليه في لغة الاقتصاد، تنمية الحياة الدينية والدعوة، وتنمية الحياة الثقافية والتعليم، وتنمية الأحوال الصحية، فضلاً عن إتاحة مناخ فكري وإداري وتكافلي مناسب للتنمية الشاملة.

أ ـ في مجال تنمية الحياة الدينية والدعوة:

كان لمؤسسة الوقف الدور الأسبق على مرّ العصور في الحفاظ على دور الدين الإسلامي المتفرد في حياة المجتمع، وتوفير السبل المناسبة للدعوة له.

إن نظام الوقف بمعناه العام ارتبط بدور العبادة دون تحديد، إذ لم تكن المعابد ملكاً لأحد من العباد في أية ديانة من الديانات، وإنما وجدت منذ القدم الأملاك المخصص ريعها للإنفاق على دور العبادة، وعلى القائمين بأمر الشعائر الدينية[1].

عندما ظهر الإسلام، كان من الطبيعي أن يرتبط نظام الوقف الإسلامي بإنشاء المساجد، لاسيما أن الإسلام حرص على أن يدعوا المسلمين إلى إنشاء المساجد وتعميرها، لقول الحق تبارك ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَـٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾[التوبة/١٨] لذلك نرى أن الأئمة والفقهاء، على اختلافهم في نقاط أخرى تتعلق بالأوقاف، لم يعارضوا وقف المساجد، بل إن الإمام أبا حنيفة كان لا يرى وقفاً لازماً إلا ما كان مسجداً[2].

---

(١) راجع: أمين: الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر، مرجع سابق، ص١١ـ١٥.

(٢) ابن الهمام: فتح القدير، مرجع سابق، المجلد الخامس، ص٣٩. السرخسي: المبسوط، مرجع سابق، المجلد الثاني عشر، ص٢٧.

كان الوقف الإسلامي ولا يزال، المصدر الأول الرئيسي في بناء المساجد في كل بقعة من ديار الإسلام، وما ذلك إلا للروح الدينية التي عززها الوقف، فلم تقتصر أحباس المسلمين على الدور والأرض اللازمة لبناء المساجد، وإنما شملت كل ما يتعلق بصيانتها، ودفع مرتبات القائمين على شئونها، من إمام وخطيب ومؤذن وواعظ وقارئ وجميع العاملين بالمسجد، كذلك ساعدت الأوقاف الفنانين على الإبداع في صنع أجمل الطرز العمرانية، وفي التفنن لإبداع الكسوة للكعبة الشريفة، وصنع السجاجيد للصلاة، وفي صنع واستخراج أرقى أنواع البخور والمسك لتعطير الكعبة المشرفة والمساجد، وفي إتقان فن صناعة القناديل والثريات الفائقة الجودة التي تعلق في المساجد وأماكن العبادة[1].

كذلك أدى ازدهار الأوقاف بدوره إلى تقوية الشعور الديني، واستمرار تدفق المشاعر الدينية عن طريق المؤسسات الدينية، كما تشهد بذلك حجج أوقاف المساجد والجوامع، ومختلف أماكن العبادة من ربط وزوايا، في طول البلاد الإسلامية وعرضها، حتى جاء عن الرحالة الفارسي ناصر خسرو، الذي زار مصر في العصر الفاطمي، أنه كان لكل مسجد في جميع المدن والقرى التي نزلت بها من الشام إلى القيروان نفقات يقدمها وكيل السلطان من زيت السرج والحصير والبوريا وسجاجيد الصلاة ورواتب القوام والفراشين وغيرهم[2]، ويؤكد ذلك ما جاء عن ابن أيبك في الدر الفاخر: «فجميع هذه الأماكن مشحونة بالأئمة والخطباء، والفقهاء، والمدرسين والمحدثين، والطلبة، والمؤذنين، والقوام، والفقراء، والمساكين، وكل من هؤلاء له المقرر من سائر ما يحتاج إليه مما أوقف عليهم من البلاد، والضياع، والأملاك، والحوانيت، ولهذه الأوقاف مباشرين وعمال وغير ذلك»[3].

ففي مصر: أعقب دخول المسلمين إليها مباشرة دخول نظام الوقف الإسلامي ويعتقد أن أول وقف في مصر الإسلامية كان جامع عمرو بن العاص، أول مسجد للمسلمين في مصر، تصدق به قبيسة ابن كلثوم، وتوالى تحبيس المصريين حكاما

(١) راجع: السيد: الدور الاجتماعي للوقف، مرجع سابق، ص٢٢٨.أمين: الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر، الفصل الرابع.
(٢) خسرو (ناصر): سفر نامة (ترجمة د. يحيى الخشاب) القاهرة، ط١، ص٦٥. في أمين: المرجع السابق، ص٥٣.
(٣) ابن أيبك: الدر الفاخر في سيرة الملك الناصر، تحقيق هانس روبرت رويمر، القاهرة، سنة ١٩٦٠م. ص٣٩١.

ورعية على المساجد والجوامع، والاهتمام بشئونها، من عمارة وصيانة، من أجل تمكينها أداء رسالتها الشاملة، حتى قال القلقشندى عن المساجد التي تقام بها الصلوات الخمس إنها «أكثر من أن تحصى وأعز من أن تستقصى»[1] أما المساجد التي تقام فيها صلاة الجمعة، فيذكر ابن شاهين أنه قيل إن بمصر والقاهرة داخل السور وخارجه ألف خطبة ونيف عن ذلك»[2] وقد يكون هذا الرقم مبالغ فيه، إذ يذكر المقريزي أن «عدد المساجد التي تقام بها الجمعة مائة وثلاثة مسجدا»[3]. وبالإضافة إلى المساجد والجوامع، فإن مصر عرفت كثيراً من المنشآت الدينية مثل المدارس والخوانق والربط، وبخاصة في العصر المملوكي.

لقد اهتمت وثائق أوقاف المساجد بتفصيل شروط القائمين عليها من مختلف التخصصات، ضماناً لحسن قيام المسجد بدوره الديني، وتنمية الحياة الدينية، وتزكيتها بين أبناء المجتمع، ومن ذلك شروط الإمام واختصاصه، وما يجرى عليه في كل شهر من شهور السنة، ولكي يتمكن الإمام من أداء عمله على أكمل وجه كان يلحق بالجامع سكن خاص بالإمام. كذلك حرص الواقفون على تحديد صفات الخطيب ومهامه، كأن يخطب بالجامع أيام الجمع والعيدين والكسوفين والاستسقاء[4]، وكان يخصص للخطيب «خلوة الخطابة» بالمسجد، وهي عبارة عن حجرة معدة لوضع الملابس الخاصة بالخطيب أو سكنا بجوار الجامع. وكذلك الحال بالنسبة للمؤذنين، والميقاتي، والمنشد أو المادح، والمبخر، والوقاد، وقراء القرآن الكريم والحديث النبوي، كل في تخصصه، وما يحتاجون إليه من أدوات تحدد الوقت وإضاءة الجامع[5].

كذلك خصص بعض الواقفين جزءاً من ريع أوقافهم لمساعدة غير القادرين لأداء فريضة الحج، حيث وجدوا فيه وجها من وجوه البر، يسهم في تلبية قوة

---

(١) القلقشندى (أبو العباس احمد بن على بن احمد): صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، القاهرة، ١٩٢٢م. المجلد الثالث، ص٣٦٥.
(٢) ابن شاهين (غرس الدين خليل): زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك، نشر بولس رأويس، باريس، ١٨٩٤م. ص٣١.
(٣) المقريزي (تقي الدين أحمد بن علي): المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ط. بولاق، القاهرة، ١٢٧٠هـ. المجلد الثاني، ص٢٤٥.
(٤) كما جاء في وثيقة وقف المؤيد شيخ في أمين: الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر، مرجع سابق، ص١٨٧.
(٥) راجع المرجع نفسه، ص١٨٥-٢٠٣.

الشعور الديني الذي جعل الكثيرين يتوقون لأداء هذه الفريضة[1]، وإن لم تفرض عليهم لعدم استطاعتهم، لقوله تعالي: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾[آل عمران/٩٧].

وفي بلاد المغرب العربي بنيت المساجد الكثيرة بأنحاء مختلفة منها، ومن أشهرها جامع القرويين، وجامع الأندلس بفاس، وجامع ابن يوسف وجامع الكتبيين بمراكش، وجامع حسان بالرباط، والمسجد الأعظم بسلا، وعدة مساجد بسبتة[2].

إن أهمية الأحباس المتعلقة بالمساجد تكمن في الدور الذي تضطلع به في مجتمع الاستخلاف، فالمسجد هو مركز إشعاع أساسي للقيم والمبادئ الإسلامية، فهو السبيل إلى تحقيق التنمية الدينية لجميع أفراد المجتمع، تأكيد هويتهم الإسلامية والحفاظ عليها، وهو المدرسة التي يتم من خلالها تنمية الحياة الثقافية والتعليمية وإعداد الدعاة، وهو ملتقى المسلمين في أعيادهم ومناسباتهم الدينية والاجتماعية، وهو مفزعهم حين تعرضهم للكوارث والأزمات، بل إن المسجد هو مركز انطلاقهم في حالة الاستنفار والاستعداد للجهاد والتصدي لمقاومة العدوان على الديار والمقدسات.

ب- في مجال تنمية الحياة الثقافية والتعليم:

قامت الأوقاف الإسلامية، ولا تزال، بدور جليل في مجال العلم والتعليم، [illegible]نهما منذ ظهور الإسلام أمرا مطلوباً شرعاً، وواجباً دينياً، فمن بين الصور [illegible]ية لدور الوقف في التنمية الاجتماعية ما يتعلق بميدان التعليم وإنشاء [illegible]، فقد أجاز الفقهاء الوقف على طلبة العلم، واعتبروا ذلك من وجوه البر[3]، [illegible] الإنفاق يعادل الجهاد في سبيل الله استناداً إلى الأحاديث النبوية التي تضع [illegible] العلم والعلماء أعلى من مرتبة الجهاد والشهداء، وبالتالي، فإن إنشاء [illegible]، والنفقة على العلماء، تعادل أو ترجح النفقة في الجهاد في سبيل الله.

---

(١) [illegible] ص٢٦٦.
(٢) [illegible] من مظاهر السياسة الاجتماعية في تاريخ المغرب، مرجع سابق، ص٢٠٦.
(٣) [illegible] على الدر المختار، مرجع سابق، المجلد الثالث، ص٣٨٧.

إن الأموال الوقفية ساهمت في تنمية التعليم والدراسة؛ سواء في داخل المساجد أو في المدارس المنفصلة، إذ رعت الأموال الوقفية عملية التنمية هذه من مرحلة الطفولة حتى المراحل الدراسية العليا المتخصصة، ونجد أن نظام المدارس والتخصصات التي انتشرت بعد نمو المعرفة الإسلامية، قد اعتمدت كليا على الأموال الوقفية، إذ لم يكن هناك وزارة للتعليم أو تخصيصات في ميزانية الدولة له، بل إن أغلب فقهاء المسلمين وعلماء دينهم ترعرعوا ونشأوا على ما وضعته أموال الوقف تحت تصرفهم، وسهلت لهم سبيلهم إلى التطور، ليس لعلوم الشريعة فحسب، بل للاندماج في كل فنون المعرفة التي يمكن تصورها في زمانهم.

كذلك فإن الوقف لعب دوراً رئيسياً، بالإضافة إلى نشر التعليم والتربية، في التقدم العلمي الذي شهدته الحضارة العربية الإسلامية، فقد كان السبب الرئيسي لأغلب الإنجازات العلمية والحضارية التي شهدها العالم في العصر الوسيط، ولا نبالغ إذا قلنا أنه على أساس الحضارة الإسلامية في هذا العصر شيدت الحضارة الحديثة. وقد ارتبط النشاط العلمي بالحياة الدينية في مختلف الأمصار، هكذا ارتبط التعليم في الإسلام، منذ بداية العصر الإسلامي أساساً بالعلوم الدينية من ناحية، ولم تكن المساجد إلا منشآت وقفية. فنجد أن أول وقف في الإسلام هو المسجد الذي بناه رسول الله ﷺ عند دخوله المدينة، وهو مسجد قباء، الذي بدأ فيه المسلمون تعلم القرآن وتعلم الكتابة والقراءة.

إن دور الأوقاف في مجال التعليم يعتبر شمولياً وحاسماً، إذ قامت بكل شيء انطلاقاً من محاربة الأمية، وإيجاد أماكن التعليم، وتجهيزها، وتزويدها بالكتب، وتأجير الأساتذة وإيواء الطلاب المغتربين. وأكثر المدارس انتشاراً هو الكتّاب الملحق بالمسجد، لارتباطه بانتشار الإسلام وحفظ القرآن وتعليم قواعد الدين، كلها راجعة للأوقاف في بنائها وتجهيزها، ودورها لا ينكر في نشر التعليم بالحضر والبادية، وإشاعة التربية الدينية، ووضع الأسس الأولى للإقبال على تعلم اللغة العربية، ونجد أثر هذا التعليم متخلخلاً في أقصى البوادي الإسلامية.

لقد بلغت الكتاتيب التي تم تمويلها بأموال الوقف عدداً كبيراً، فمثلا عدّ ابن حوقل منها ثلاثمائة كتّاب في مدينة واحدة من مدن صقلية، كما أورد ذلك في كتابه

الجغرافي، وذكر أن الكتّاب الواحد كان يتسع للمئات أو الآلاف من الطلبة، ينفق عليهم وعلى الدراسة من أموال موقوفة لذلك الغرض[1].

كما قامت الأوقاف بالتعليم الابتدائي المتمثل في الكتاتيب لتعليم القراءة والكتابة واللغة العربية والعلوم الرياضية، فإنها قامت، أيضاً، بمستويات أخرى من التعليم، حيث أنشئت مدارس كمؤسسات وقفية، وكانت تقوم مقام الجامعات في وقتنا الحاضر، وكانت تتولى تنشئة القدرات البشرية في مختلف فروع المعرفة الإنسانية للمجتمع الإسلامي، أو كانت تدرس فيها جميع المذاهب الإسلامية، إضافة إلى العلوم العقلية والنقلية والطبيعية والطب وغيرها من العلوم الأخرى، فكان أي طفل موهوب، بعد أن يتعلم في المساجد أو الكتاب القراءة والكتابة وقراءة القرآن التي كانت منتشرة في كل القرى والدساكر، والتي كانت تعطيه الخلفية التي هي حجر الأساس، يستطيع بعد ذلك ان يذهب الى دراسات متخصصة، إذ كانت الأوقاف هي أهم مصدر لتعضيد مثل هذه الدراسات العليا المتخصصة[2]. ويعطي لنا ابن خلدون أمثلة عديدة على ما توفر في بغداد وقرطبة والبصرة والقيروان وغيرها كمراكز للحضارة العمرانية وللعلوم، كل ذلك بما وفرته الأموال الموقوفة في زمانه، والتي خصصت لتغطية الدراسة والنشاط العلمي والثقافي. ومن هذه المدارس، على سبيل المثال لا الحصر:

1. المدرسة الظاهرية، التي أنشاها الظاهر بيبرس في القاهرة سنة ٦٢٦هـ.
2. المدرسة الصالحية بمصر، التي أنشاها الملك الصالح نجم الدين أيوب سنة ٦٤١هـ.
3. المدرسة المعتصمية في بغداد، التي أنشأتها السيدة شمس الضحى حفيدة السلطان صلاح الدين الأيوبي.
4. المدرسة المنصورية بمصر، التي أنشأها المنصور بن قلاوون سنة ٦٨٣هـ.
5. المدرسة السعودية ببغداد، التي بناها مسعود الشافعي.
6. المدرسة الصلاحية بحلب، التي أوقفها الأمير صلاح الدين يوسف الدوادار.
7. مدرسة السلطان حسن بالقاهرة سنة ٧٥٧هـ.
8. المدرسة الجمالية بمصر، التي أنشئت سنة ٨١١هـ.

---

(1) [illegible] الدور الاجتماعي للوقف، مرجع سابق، ص٢٣١.
(2) [illegible] ص٢٤٩.

٩- مدرسة الملك الأشرف بن قلاوون في القاهرة.
١٠ - المدرسة الغياثية أو مدرسة الملك المنصور بمكة المنورة، التي بناها المنصور غياث الدين سنة ٨١٣هـ.
١١- مدرسة السلطان قايتباي بمكة المكرمة، التي افتتحت سنة ٨٨٤هـ.
١٢- المدارس الأربعة بمكة المكرمة، التي بناها السلطان سليمان القانوني سنة ٩٢٧هـ[1].
١٣- المدرسة المستنصرية، التي أوقفها الخليفة المستنصر بالله سنة ٦٣١هـ.
١٤- جامع القرويين بفاس.
١٥- الجامع الأزهر بمصر، الذي بناه الفاطميون ليكون جامعة لدراسة مذاهب أهل السنة والجماعة، وأول وقف له صدر عن الحاكم بأمر الله بن العزيز بالله في رمضان سنة ٤٠٠هـ، ثم توالت عليه الأوقاف بصفة عامة أو في حصة للأروقة المختلفة به، أو لأساتذة المذاهب الأربعة، أو لتدريس مادة معينة ولاسيما علوم القرآن والحديث[2].

على الرغم من زيادة عدد المدارس في الدول الإسلامية على مر العصور إلا أنه لم توجد سياسة تعليمية للدولة أو للسلاطين، وكان للأوقاف أهمية خاصة بالنسبة للتعليم، فالأوقاف هي التي ثبتت أركان المدرسة، ودعمت نظامها، ومكنتها من القيام برسالتها، وكان الريع الذي تغله الأعيان الموقوفة على المدرسة شهريا أو سنويا، نقدا أو عينا، هو ضمان استمرار العمل بها، حيث تدفع منه مرتبات أرباب الوظائف بالمدرسة والطلبة، حسب شروط الواقف، ومن بين ذلك ما توفره هذه المدارس لطلبتها من إقامة مجانية، وتجهيزهم بطعام يومي، مع مصاريف إضافية لكي ينصرفوا للعلم والبحث الحر، نتيجة ما أوقف وأرصد على المدرسة.

لم يقتصر أثر الأوقاف على التعليم على أنها المورد المالي للمؤسسة التعليمية، سواء أكانت مدرسة أو مكتباً، بل تعدى الأمر ذلك إلى كافة الجوانب العملية التعليمية حتى أنه يمكننا القول أن وثيقة الوقف كانت بمثابة اللائحة الأساسية

(١) لمزيد من التفاصيل راجع: السيد: الدور الاجتماعي للوقف، مرجع سابق، ص٢٣٩-٢٤٠.
(٢) راجع: رمضان (مصطفى محمد): دور الأوقاف في دعم الأزهر كمؤسسة علمية إسلامية في ندوة مؤسسة الأوقاف في العالم العربي الإسلامي، مرجع سابق، ص١٢٥-١٤٨.

للمؤسسة التعليمية والتي تضم الأسس التربوية للتعليم، والشروط التي يجب توافرها في القائمين بالتدريس ومواعيد الدراسة، وما إلى ذلك من التنظيمات الإدارية والمالية.

لقد أتاحت أموال الوقف بذلك الاستقلال المادي والفكري لرجال العلم، سواء أكانوا من علماء الدين وفقهائه، أم من علماء العلوم الطبيعية وغيرها من العلوم الدنيوية، فكانوا مستقلين عن السلطة غير خاضعين لها، بل لقد عارضوا بقوة السياسيين كلما حاول هؤلاء الاعتداء على الشريعة، ودافعوا عن قيمها وأسسها، كما كان رجال العلم والتعليم أحراراً في دراسة مختلف العلوم الإنسانية والطبيعية بالإضافة إلى حريتهم في الاندماج بأية دراسات جديدة لطرح مشاكل وأسئلة عميقة تتعلق بشئون الإنسان وحياته، كذلك أتاح لهم عدم الاعتماد على أموال تأتيهم من سلطان أو حاكم، أن يعضدوا حرية الفكر والتعبير عنه، وأن يصدروا آراءاً وأحكاما تتفق مع الشريعة، حتى أنهم أجبروا السلطة الزمنية على الخضوع لقيم الشريعة، كما فعل العز بن عبد السلام في أحكام السلاطين الأتراك، وكما فعل أبو حنيفة مع الخليفة المنصور عند اجتماعه بالفقهاء.

إلا أن ارتباط التعليم بالمساجد منذ بداية العصر الإسلامي لم يسمح بتعليم الأولاد والصبيان، لعدم جواز تعليمهم في المسجد، فكان ذلك الأساس في إنشاء الكتاب أو المكاتب التي نهضت بالمرحلة الأولى من التعليم، حيث أوقفت الأوقاف من أجل تعليم أطفال الفقراء والأيتام. وبالرغم من بساطة التعليم في هذه المكاتب، فقد كان للأوقاف أثارا بعيدة المدى في هذه المرحلة الهامة من التعليم، حيث حرص الواقفون على تحديد كل ما يتعلق بالعملية التعليمية، وقد خلقت شروط الواقفين وحرص نظار الوقف على تنفيذها سنة بعد أخرى، نوعاً من التقاليد التي أصبح معمولاً بها، حتى ولو لم ينص عليها.

كذلك وصلت عوائد الأوقاف إلى المساجين، فلم يحرموا منها، إذ خصصت بعض الوقفيات من أجل الإنفاق على تعليمهم، حتى يخرجوا من السجن وهم متقنون لعلم من العلوم أو لصناعة من الصناعات، فأصبح ينفق على هذا التعليم وعلى المعلمين خاصة من الأموال الموقوفة المخصصة لهذا الفرض.

ولقد عملت مؤسسات الأوقاف التعليمية على تحقيق المساواة في المركز الاجتماعي لمختلف قطاعات المجتمع، فقد كان الطلبة يأتون من مختلف طبقات الشعب، ممثلين للمجتمع على نطاقه الواسع، وبقيت هذه الأوضاع سائدة في كل العصور. وقد لعبت هذه الطبقة المتعلمة دوراً رئيسياً في انتقال المعرفة والمعلومات الإنسانية والعلمية والأخلاقية والقيم الدينية، فأتيح لكل فرد من أفراد المجتمع الإسلامي الفرصة لكي يكون عضواً فعالاً في هذه الفئة التي اتصفت بالعلم والمعرفة.

إن الوقف على التعليم والمدارس قد عضّد المهن والتعليم، ومدّ المجتمع بما يحتاج إليه من قوى بشرية مؤهلة لكل مجالات الإدارة ومختلف الأجهزة الوظيفية، كما أمدّه بكل المهنيين لمختلف النشاطات الاقتصادية والاجتماعية.

إن تأثير الوقف الإسلامي على تنمية التعليم شمل إنشاء المكتبات وإيقافها، والإيقاف عليها من الكتب والأموال، وهو أمر سبق مرحلة إنشاء المدارس الجامعية والإيقاف عليها، فقد حرص الواقفون على أن يلحقوا بكل مدرسة وبأماكن التعليم في المساجد والجوامع والخوانق والزوايا مكتبة يرجع إليها المدرسون والطلاب، ولاسيما الفقراء منهم، وقد اتخذت أسماءً متعددة مثل خزانة الكتب وبيت الكتب ودار الكتب ودار العلم أو ما سمي ببيوت الحكمة، إذ أنها جميعاً كانت تقوم مقام المكتبات المركزية في وقتنا الحاضر. فكان الوقف، بذلك، المصدر الرئيسي الذي مكّن وسّهل عملية الإطلاع على الكتب، وأتاح للعلماء والأساتذة والطلبة الحصول على مصادر المعرفة من التآليف المخطوطة المودعة في تلك المكتبات، لمطالعتها واستنساخها إن دعتهم الحاجة إلى ذلك. وقد تركت الأوقاف، بذلك، طابعها المميز العميق على مسار الحضارة، وعلى نشر المعرفة المتخصصة لدى العلماء المسلمين، كما أسهمت في نشر الكتاب العربي الإسلامي على نطاق واسع، في وقت كانت فيه الطباعة غير معروفة، وغير موجودة في أي مجتمع.

من المكتبات التي قامت بدور في التاريخ الإسلامي، المكتبة التي بناها ثم أوقفها بنو عمار في طرابلس الشام، وكانت آية في السعة والضخامة، إذ كان عدد النساخين فيها يبلغ ١٨٠ناسخاً، يتناوبون العمل ليل نهار، بحيث لا ينقطع النسخ فيها، ويقال إنها حوت على مليون كتاب على أرجح الأقوال. كما أن الحاكم بأمر الله

الخليفة الفاطمي لم يوقف الحكمة وما حوته هذه الدار من كتب فحسب بل أوقف على من يرتادها بانتظام أموالاً تعطى لهم سواء من كان منهم من الطلبة، أو من الفقهاء والعلماء. كذلك قيل: إن دار العلم بالكرخ التي أوقفها الوزير أبو نصر أحد وزراء بني بويه، كانت مكتبة كبرى لم يكن أحسن منها فهرسة وتنظيماً. كذلك كانت الربط الإسلامية مراكز مهمة لإيقاف الكتب وإنشاء خزائن كتب فيها، فخصصت أموال وقفية وفيرة على إدامتها وإدارة مكتبتها والمحافظة عليها وصيانتها.

لقد وجدت بجانب هذه المكتبات الموقوفة في كثير من الأحيان، المراصد الفلكية التي تتبعها، وقد ساهمت في نشر العديد من الرسائل بعلم الفلك، وكان علماء المسلمون من خيرة الفلكيين في العالم في تاريخ الإنسانية.

من ناحية أخرى، نجد أن الكثير من عناصر التعليم وأساليبه، والطرق التي اتبعت، والنتائج التي استخلصت من النقاشات والندوات في المدرسة أو المسجد، كلها كانت الركائز الأساسية التي بنى الغرب على نسقها منظماته التعليمية والجامعية[1].

جـ - في مجال الرعاية الصحية:

اهتم الوقف الإسلامي برعاية صحة المسلم وتنشئته كإنسان قادر بدنياً وعقلياً على أن يعيش بحرية وبكرامة، لذا فقد أوقف أغنياء المسلمين الأحباس الواسعة على إنشاء المستشفيات وكليات الطب التعليمية، فعضدت أوقافهم مهنة الطب والتمريض، كما أوقفوا بسخاء على تطور الطب والصيدلة، والعلوم الأخرى المرتبطة بالطب، وقد عُرفت المجمعات الصحية الموقوفة باسم دور الشفاء، وبدور [illegible] أو البيمارستانات.

من هذه الأوقاف تلك التي رصدت للبيمارستان المنصوري الذي أنشئ سنة [illegible] لعلاج الملك والمملوك، والكبير والصغير، والحر والعبد، وكان مقسماً إلى أربعة أقسام: للحميات، الرمد، والجراحة، والنساء، وخصص لكل مريض فرش كامل، وعين له الأطباء والصيادلة والخدم، كما زود بمطبخ كبير، وكان المريض إذا

---

[1] [illegible] أمين: الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر، مرجع سابق، ص٢٤٠ـ٢٦٤. السيد: الدور الاجتماعي [illegible] مرجع سابق، ص٢٤٢ـ٢٧٧.

ما برئ وخرج تلقى منحة وكسوة. وقدرت الحالات التي يعالجها المستشفى في اليوم الواحد بعدة آلاف، وألحقت به مدرسة للطب يجلس فيها رئيس الأطباء لإلقاء درس ينتفع به الطلبة.

كان أول بيمارستان أنشئ بمصر بيمارستان أحمد بن طولون، وقد أدخل فيه ضروباً من النظام جعلته في مستوى أرقى المستشفيات في الوقت الحاضر. وبلغ من عناية أحمد بن طولون أنه كان يتفقده بنفسه يوماً في كل أسبوع، كان في الغالب يوم الجمعة، فيطوف على خزائن الأدوية، ويتفقد أعمال الأطباء، ويشرف على سائر المرضى، ويعمل على مواساتهم وإدخال السرور عليهم، بما في ذلك المحبوسين من المجانين.

كذلك أوقفت زوجة السلطان سليمان القانوني مستشفى من أموالها الخاصة، مع وقف العديد من المحلات التجارية للإنفاق عليه، وكان يحتوي على مدرسة للطب.

كما اهتم المسلمون بتوفير الرعاية الصحية لأطفالهم، فخصص الورعون منهم أموالا موقوفة تنفق على رعاية الأطفال وتنشئة المعوزين منهم، خاصة من لا آباء لهم، فضلاً عن توفير حاجات مربياتهم، والمعاهد التي سترعاهم. وقد استمرت هذه الرعاية للأطفال، والعناية بتعليمهم وصحتهم من قبل الواقفين حتى العصور الحديثة.

إن اهتمام الوقف بتوفير الرعاية الصحية للمسلمين يتضح من إنشاء العديد من المستشفيات، حتى إن عدد المستشفيات في بعض المدن تجاوز أكثر من خمسين مستشفى في وقت واحد، بينما لم يوجد في أوروبا، في حينه، أي مستشفي يوازي أيا منها، إذ كان الخلفاء والأمراء ونساؤهم وأعيان وكبار موظفي الدولة يتهافتون على إنشاء هذه المعاهد قربة إلى الله تعالى.

لقد بلغ من عناية المسلمين بالمستشفيات لكي تقوم بأداء الخدمات نحو مرضاها بصورة متكاملة، وتسهم في تطور صحة المجتمع، أنه كانت توقف الأوقاف الكاملة لبناء أحياء طبية متكاملة الخدمات والمرافق، كما تنشأ فى العصر الحديث المدن الطبية الآن. ولم يقتصر اهتمام الأوقاف على إنشاء المستشفيات الخاصة بعلاج الأمراض العضوية فحسب، وإنما اهتمت بإنشاء البيمارستانات الخاصة بمعالجة

الأمراض النفسية والعقلية والعصبية وخصصت لها الأوقاف التي تجعلها تقوم بمهامها على شكل أفضل(١).

نرى أن أثر الأوقاف في مجال الرعاية الصحية لم يقتصر على المترددين على البيمارستانات، بل شمل المرضى الفقراء في بيوتهم، فقد نص السلطان قلاوون في كتاب وقفه على أن تمتد الرعاية الصحية إلى الفقراء في بيوتهم، فيصرف لهم ما يحتاجون إليه من الأدوية والأشربة والأغذية، بشرط عدم التضييق على الموجودين بالبيمارستان، ويذكر إن هؤلاء المرضى بلغوا في وقت من الأوقات أكثر من مائتين، بينما بلغ عدد المترددين على ما يمكن أن نطلق عليه العيادة الخارجية للبيمارستان حوالي أربعة آلاف نفس. وبالرغم مما يبدو في هذا الرقم من مبالغة، إلا أنه يعطينا صورة واضحة عن مدى أهمية هذا البيمارستان، ومدى الاستفادة منه بالنسبة لمختلف فئات الشعب(٢).

كذلك استوحى الواقفون بعض أوقافهم في المجال الصحي من طبيعة العصر، فمثلاً كان لانتشار الأوبئة والطواعين في بعض الفترات، أن كثرت الأوقاف من أجل تغسيل فقراء المسلمين وتكفينهم ودفنهم وكثيرا ما صنع الناس التوابيت في أوقات الطواعين، وأوقفوها على نقل الموتى(٣).

لقد كان للأوقاف الإسلامية أثر كبير على النهوض بعلم الطب والعمل على ترقيته، ذلك أن خدمات البيمارستانات لم تقتصر على معالجة المرضى، بل تعدى الأمر ذلك إلى تدريس الطب والاهتمام به، ويشبه ذلك إلى حد كبير ما يتم في كبار المستشفيات في العصر الحديث من إلحاق كليات الطب بالمستشفيات حيث تتوافر الدراسة العملية، وممارسة الطب تحت يد الأساتذة، كما خصصت أوقاف مقررة للإنفاق على تأليف الكتب في الصيدلة والطب، واستطاع الأساتذة أن يكملوا كتبهم نتيجة مثل هذا التعضيد من هذه الأموال الموقوفة. ومن ذلك كتاب الكليات في الطب الذي يعني الطب لابن رشد الذى تم ترجمته الى اللاتينية، فأصبح هو الكتاب الرئيسى

---

(١) ... الوقف الإسلامي وأثره في الحياة الاجتماعية في المغرب، مرجع سابق، ص٢٤٥.
(٢) ... الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر، مرجع سابق، ص١٥٥-١٦٩. جمعة محمد: الوقف وأثره ...، مرجع سابق، ص١١٧-١١٩. السيد: الدور الاجتماعي للوقف، مرجع سابق، ص٢٨٠-٢٩٢.
(٣) ... الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر، مرجع سابق، ص١٠٥.

لتدريس الطب في أوروبا، إذ أن الطب هو أول دراسة عليا اقتبسها الغرب من العرب(١).

وأخيراً، في مجال توفير مناخ فكري وإداري وتكافلي مناسب فإن الأوقاف بما أرسته من قيم ومبادئ إسلامية، أسهمت بدرجة كبيرة في نشر المعرفة والمعلومات الإنسانية والعلمية والأخلاقية، والقيم الدينية، بين أبناء المجتمع الإسلامي، حيث أتيح لكل فرد الفرصة ليكون عضواً فعالاً متمرساً في أحد مجالات الفكر الإنساني أو العمل الإداري بدرجة عالية من الارتقاء(٢).

إن الأوقاف ومؤسساتها الأهلية، وجهودها الطوعية، وأعمالها الخيرية وإعاناتها للعلماء والمجاهدين، وتشجيعها لطاقات الخلق والإبداع، استطاعت أن تحفظ للأمة الإسلامية دورها في حمل أمانة رسالة التقدم، بأن تحفظ عليها دينها من تأثير الانحرافات في الدولة، فأعانت بذلك في حفظ حضارة الأمة ورعايتها وتطورها.

إن الأوقاف قامت بتمويل الصناعة الحضارية الدائمة والمتجددة، بأن حفظت للأفراد المناخ الإسلامي المناسب فكرياً وإدارياً وتكافلياً لتحقيق التنمية الشاملة. فقد تحولت العلاقات والأفضال والولاءات من الأشخاص إلى المؤسسات الوقفية ذات الأعراف والأنظمة والإدارة الإسلامية، فلم يعد لشيخ قبيلة، أو ثرى متنفذ، أو حاكم متملك، سلطان على أفراد المجتمع. فقد ضمنت الأوقاف للفقراء والمعوزين الرعاية الاجتماعية من سبيل ومأوى، وملبس، ودواء، وعلاج، ومياه شرب، كما وفرت للجميع ضمانات للحرية الفكرية في المدارس، والمعاهد، والجامعات، التي لا تخضع إلا لضوابط وشروط الواقفين المحتسبين لها عند الحق سبحانه. كذلك تحققت استقلالية المساجد والجوامع، وتم ضمان استمراريتها، ودوام صيانتها وخدمتها، رغم ما قد يعترض المجتمع من تقلبات اقتصادية وسياسية، فضلا عن تطوير القدرات الإدارية والتنظيمية للاستثمار بعيد المدى، بتدوين الدواوين، وضبط القيود، ومحاسبة القضاة لمتولي الأوقاف(٣).

---

(١) راجع: المرجع نفسه، ص١٧٠. السيد: الدور الاجتماعي للوقف، مرجع سابق، ص٢٨٦-٢٨٩.
(٢) راجع: المرجع نفسه، ص٢٥٦-٢٥٧.
(٣) راجع: برزنجي: الوقف الإسلامي وأثره في تنمية المجتمع، مرجع سابق، ص١٣٧-١٣٨.

لقد أثبتت الوقائع التاريخية أن الوقف الإسلامي تطرق إلى تحقيق الأهداف الاجتماعية جميعا. فقد خصصت أوقاف للقطاء واليتامى، وأخرى للمقعدين والعميان يتوفر لهم فيها السكن والغذاء والكساء، كما أوقفت أوقاف لتحسين أحوال المساجين وتغذيتهم وتوجيههم، وأوقفت مؤسسات أخرى لتزويج الشباب، وأخرى لتزويد الأمهات بالحليب والسكر للأطفال، كذلك خصص وقف لتقديم ثياب العرائس وحلية إلى العروس التي تفتقدها ليلة الزفاف، وأوقاف لعلاج المرضى نفسياً بترتيب من يتهامسون وراء المريض، بحيث يسمعهم، وكأنهم لا يقصدون ذلك، وتدور الكلمات المهموسة حول رأي الطبيب في قرب شفاء المريض، كما خصصت أوقاف لرعاية النساء الغاضبات اللواتي لا أسر لهن، أو تكون أسرهن في بلاد بعيدة، فتؤسس لهن دور تقوم على رعايتها نساء، على رأسهن مشرفة تهئ الصلح للمزوجات الغاضبات مع أزواجهن، كما خصصت أوقاف للأواني والقدور المخصصة للمناسبات، أفراحاً وأحزاناً، ومنها تعوض الأواني التي يكسرها الخدم حتى لا يؤذيهم سادتهم، بالإضافة إلى أوقاف تقوم بتسليف المحتاجين بدون فائدة ولا عوض، وتسدد ديون المعسرين، وتزويج المحتاجين والمحتاجات.

بل لقد اهتمت هذه الأوقاف بتوفير الرعاية المناسبة للحيوان، ومنها مؤسسات علاج الحيوانات المريضة، إطعامها، ورعايتها عند العجز، ورعاية الحيوانات الأليفة(1).

---

(1) [illegible] كامل: دور الوقف في النمو الاقتصادي، مرجع سابق، ص٤٣.
- [illegible] الوقف وأثره التنموي، مرجع سابق، ص١٢٧.
- [illegible] دور الوقف في النمو الاجتماعي...، مرجع سابق، ص١٦٢-١٦٤.